«البنيويَّة وما بعدها» لجون ستروك: تفكيك قِيَم الحداثة والإعراض عن إعادة تشكيلها

الدكتور محمود إبراهيم[1]

بطاقة الكتاب:

- اسم الكتاب: البنيويَّة وما بعدها -من ليفي شتراوس إلى دريدا-
- تأليف: جون ستروك
- ترجمة: محمَّد عصفور
- بيانات النشر: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، رمضان1416هـ.ق/ شباط1996 م، العدد 206، 255 صفحة.

تمهيد

لم يكن عمل الباحث الأميركيّ جون ستروك (1930-2017م) في كتابه «البنيويَّة وما بعدها»، مجرَّد رحلةٍ بحثيَّةٍ في عالم المفاهيم. ربما تنبَّه من قبل أن يشرع بالكتابة إلى معضلة التكرار التي غالبًا ما يقع فيها المشتغلون في الفلسفة المعاصرة؛ لذلك سيعمد المؤلِّف في هذا الكتاب إلى مجاوزة التقليد المعتمد لدى الكتابة عن مفهومٍ مثيرٍ للجدل كمفهوم

(1) باحث في الفكر الفلسفيّ، من لبنان.

«ما بعد البنيويَّة»، ثم ليدخل عميقًا في تطبيقاته، وفي الكيفيَّة التي جرت فيه تلك التطبيقات في المجتمع الثقافيّ الغربيّ. وتحقيقًا لهذا المقصد سعى البروفسور ستروك إلى حصر بحثه بخمسةٍ من كبار المفكِّرين والأنثروبولوجيِّين، هم: كلود ليفي شتراوس، رولان بارت، ميشال فوكو، وجاك لاكان، وصولًا إلى جاك دريدا.

تكمن أهمِّيَّة هذا الكتاب في أنَّه يقارب بالتحليل والنقد واحدًا من أبرز المفاهيم التي احتلَّت مكانةً محوريَّةً بين مذاهب وتيَّارات ما بعد الحداثة؛ لهذا جاز القول: إنَّ هذا المفهوم الذي نشأ وتبلور وتعدَّدت آفاقه خلال القرن العشرين المنصرم، لا يزال اليوم موضع التداول الأكثر شيوعًا وانتشارًا في الأوساط العلميَّة والأكاديميَّة في القارَّتين الأوروبيَّة والأميركيَّة. على هذا الأساس بات يُنظر إلى «ما بعد البنيويَّة» بوصفها أحد أبرز تيَّارات ما بعد الحداثة. بل هي ترتبط بوشائج قربى معها، وتعبِّر في صميمها عن أحوالها وظواهرها. بل أبعد من ذلك، فقد تأثَّرت ما بعد البنيوية إلى حدٍّ بعيدٍ بالظاهراتيَّة، إلى حدِّ أنَّ كثيرين من الأكاديميِّين المتخصِّصين في الفلسفة المعاصرة وجدوا أنَّ التسمية الأنسب لها هي «ما بعد الظاهراتيَّة»؛ فالمنهج الظاهراتيّ ينظر إلى العالم بوصفه نصًّا مفتوحًا على التأويل للبحث في الوجود وماهيّته، ما يفسح في المجال لتعدُّد القراءات والتفسيرات، وتفعل الظاهراتيَّة ما تفعله ما بعد البنيويَّة على القارئ بوصفه شخصيَّة فاعلة في القراءة وعمليَّة إنتاج المعنى، حيث التفاعل بين القارئ والنصّ المقروء. هذا الأمر نلاحظه بوضوحٍ عند رموز الظاهراتيَّة أمثال هوسرل وهايدغر، وسنلاحظه بقوَّة في المقابل عند ما بعد البنيويِّين والتفكيكيِّين. لكن من المهمّ الإشارة في هذا المجال إلى أنَّ «ما بعد البنيويَّة» تنقسم إلى ثلاث جماعات على الشكل الآتي: جماعة تيلكيل Telquel مع دريدا، وكريستيفا، وبارت في مرحلته الأخيرة من خلال كتابَيْه: «لذّة النصّ» و«من الأثر إلى النصّ»؛ وجماعة دولوز، وغاتري، وفوكو في مرحلته الأخيرة كما ظهر في

كتاباته المتأخِّرة: «المراقبة والمعاقبة»، و«تاريخ الجنس»؛ وبودريار (كفردٍ بصيغة جمع). وتتميَّز «ما بعد البنيويَّة» بأنَّها توجُّهٌ لمجموعةٍ من الفلاسفة المشاكسين الذين يشتركون في موقفٍ فلسفيٍّ جديدٍ وخاصّ، وهو موقفٌ لا يتلاءم مع مفهوم البنية وحسب، بل إنَّه أيضًا موقف لا علميّ إلى حدٍّ بعيد؛ حيث يدفع «ما بعد البنيويّين» الآثار الفلسفيَّة لنمط تفكير ما فوق البنية إلى الخلف، لصالح الموقف التقليديّ للموضوعيّة والحقيقة الذي عند تهديمه تصير المعرفة العلميَّة أقلّ قيمةً من النشاط الفلسفيّ والأدبيّ، وبالتالي تتمّ تنحية التحليل الملاحظاتيّ الدقيق، والشبكات التفسيريّة الموسّعة لصالح القبس الفوريّ للإشراق المباشر. ومن هنا وُجِّه إلى «ما بعد البنيويّة» الكثير من موجات النقد، لعلّ أهمّها أنَّها نسبيَّة وعدميّة، كما اعترض البعض على تطرُّفها وتعقيدها اللغويّ، ورأوا فيها تهديدًا للقيم التقليديَّة والمعايير المهنيَّة العلميَّة.

أوَّلًا: إرهاصات المفهوم وحكايته التاريخيَّة:

مصطلح «ما بعد البنيويَّة» هو تسمية وضعها أكاديميُّون أميركيُّون للدلالة على أعمالٍ غير متجانسة لمفكِّرين فرنسيِّين في العقد السادس والسابع من القرن العشرين، وتشمل التسمية التطوُّرات الفكريَّة البارزة في النصف الثاني من القرن العشرين للفلاسفة والمنظِّرين الفرنسيِّين. وتتعلّق «ما بعد البنيويَّة» بموضوعات النقد الأدبيّ وموضوعات الفلسفة؛ إذ تتبنّى مذهبًا يقوم على أنَّ اللغة ليست وسيلةً واضحةً ومباشرةً لإيصال الحقيقة أو الواقع، إنّما هيَ بنية أو شفرة تمتلك المعنى عن طريق التباين بين أجزاء اللغة نفسها، وليس بارتباطها بالعالم الخارجيّ. وتنفي «ما بعد البنيويَّة» إمكانيَّة إجراء دراسة حقيقية للإنسان أو للطبيعة البشريَّة، لكن يمكن تحليلها من خلال سرد التطوُّر التاريخيّ. أي إنَّ البنيويَّة تنظر إلى الإنسان بوصفه كائنًا مماثلًا لأيِّ كائنٍ حيّ أو غير حيّ على وجه الأرض،

فهو مؤلَّف من بنيات مصغّرة، وأنَّه ينبغي تحليل هذه البنيات المصغّرة لكي نفهمه؛ فعالم النفس يُحلِّل بنيته النفسيَّة، وعالم الاجتماع يُحلِّل بنيته الاجتماعيَّة، وعالم الأديان يُحلِّل بنيته الدينيَّة، الخ. وهذه هي الدراسة البنيويَّة العلميَّة للإنسان.

الهدف من هذا الكتاب -كما يُبيِّن مؤلِّفه- هو شرح ومعاينة عمل خمسة من المفكِّرين الفرنسيِّين الذين ترتبط أسماؤهم عادةً بـ «البنيويَّة»، وتحديد الأرضيَّة المشتركة التي تجمع بين هؤلاء الخمسة وتُبرِّر ظهورهم معًا في كتابٍ واحد. والعنوان الذي يُعرف به الرسم الكاريكاتوريّ الذي وصفته، وهو «حفلة غداء البنيويِّين»، عنوانٌ لم يحالفه الحظّ إلى حدٍّ ما؛ إذ إنَّه يدلّ على قدرٍ من التلاقي بين أفكار المفكِّرين الخمسة الذين يضمّهم الرسم، وهو أمرٌ لا يمكن إثباته من كتاباتهم؛ فبعض هؤلاء «البنيويِّين» أكثر بنيويّةً من بعضهم الآخر[1].

لنستقرئ ما قصده جون ستروك من تناوله لروّاد المدرسة «المابعد بنيويّة»:

ليفي شتراوس وصحبه:

يقف ليفي شتراوس بحسب ما يصوِّر المؤلِّف في الطرف الأقصى من المدرسة البنيويَّة. بل إنَّه يشير إلى دوره المؤسِّس للحقبة التالية من ظهورها. وهذا هو السبب الذي جعل المقالة التي تتناوله هي الأولى في الكتاب. لقد اختار شتراوس أن يعرف جهده طوال حياته بمنهج البحث الأنثروبولوجيّ الذي قامت عليه مجمل أبحاثه. وبعض كتبه تدلّ على هذا المنحى: «البنى الأوَّليَّة للقرابة» (the elementary of structure 1949)، أو «الأنثروبولوجيا البنيويَّة» structural Anthropology بجزأيه (1958 - 1973). والتزامه

(1) انظر: ستروك، جون: البنيويَّة وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة: محمَّد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، رمضان1416هـ.ق/ شباط1996م، العدد 206، ص20.

بالبنيويَّة صريحٌ مطلق. وهو يعتقد بأنَّ المنهج الذي اتّبعه هو الذي مكَّنه من جعل المعطيات التجريبيَّة حول مؤسَّسات القرابة والطوطميَّة والأسطوريَّة أقرب إلى الفهم من أيِّ وقتٍ مضى. لا بل إنَّه يمضي إلى ما وراء تفسير هذه المعطيات بحيث ينتهي إلى تحديد ماهيَّة ما يعتبره الصفات التي يختصّ بها الذهن البشريّ عامَّة. ويتميز ليفي شتراوس عن أصحابه الذين يضمّهم هذا الكتاب باتِّساق منهجه، وبعقلانيّته، وبالمباشرة في نقل مكتشفاته وأفكاره إلى قرائه.

أمَّا بقيَّة المفكِّرين الأربعة فلن يسعد أيّ منهم بلقب «البنيويّ»، من جانب المؤلِّف. فهذا لقب سيعتبره كلٌّ منهم خرقًا شديدًا لحريَّته في التفكير. رولان بارت على سبيل المثال كان شديد الانتقائيَّة بقدر ما يتعلَّق الأمر بالمناهج التي اتّبعها لدراسة الأدب، أمَّا فوكو فقد احتجَّ علانيةً على حشره بين «البنيويِّين» وذلك لأسبابٍ تشبه تلك التي كان بارت سيلجأ إليها. فهو الآخر لا يودّ أن يحتلّ موقعًا ثابتًا على المطاف الأيديولوجيّ أو الفكريّ، بل يُفضِّل أن يتحرَّك بحرِّيَّة، وأن يظهر تارةً في هذا الجزء من المنظر الطبيعيّ وتارة في ذاك؛ وذلك من أجل إخضاع الأشكال المتعدِّدة، التاريخيَّة منها والمعاصرة، من أشكال المعرفة والقوّة للبحث والتساؤل دون أن يخضع هو لمثل هذا البحث أو التساؤل. وعندما نصل إلى دريدا -أخيرًا- نجد أنَّه قد برز في وقتٍ متأخِّر عن بقيَّة المفكِّرين الذين نتناولهم هنا (لم يكن سنة 1966 قد نشر أيّ كتابٍ كاملٍ من تأليفه مع أنَّه نشر في العام التالي ثلاثة كتب دفعةً واحدة)؛ ولذا فإنَّ اسمه كان أقلَّ ارتباطًا بـ «البنيوية» منهم، لا بل إنَّه غدا -أراد أم لم يرد- الملهم الذي لا ينازعه أحد للحركة التي تلتها، وهي الحركة التي تعرف الآن بـ «ما بعد البنيويَّة»[1].

(1) انظر: ستروك، البنيويَّة وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، م.س، ص31.

بنيويَّة رولان بارت وأطروحة موت المؤلِّف:

لم يكن الفيلسوف الفرنسيّ رولان بارت Roland Barthes (1915-1980) مستقرًّا على حال كما يذهب المؤلِّف. وفي سياق تبيينه لهذا الانطباع يرى أنَّ بارت انتقل من «البنيويَّة» إلى «ما بعد البنيويَّة» محاولًا تقديم رؤيةٍ فلسفيَّةٍ تتَّفق مع نزعته النقديَّة وثقافته الواسعة. وهكذا سيعمل على تظهير قضيَّةٍ تدخل في عمق التنظير الذي طاول بنية التيَّار البنيويّ. وهكذا فقد مضى إلى تقديم نظريَّة «موت المؤلِّف» التي لم تكن شطحة فكريَّة أو نظريَّة عبثيَّة، لكنَّها كانت مقصودة بإحكام؛ حيث حاول أن ينقل الوعي الأوروبيّ من التقليد إلى المعرفة والبحث، ومن ترديد أقوال المشاهير إلى تفعيل مقولة الأنا. وقد لاقت هذه النظريَّة اهتمامًا كبيرًا في الأوساط الفكريَّة والأدبيَّة. خاصة أنَّها جاءت بوصفها نقدًا أساسيًّا لنظريَّات النقد التقليديّ التي تهتمّ عند دراسة العمل الأدبيّ بدراسة حياة الأديب وظروف حياته التي دعته إلى تأليف هذا العمل، فكما يقول بارت: «بالعثور على المؤلِّف يكون النصّ قد وجد تفسيره والناقد ضالَّته». ومن ثم يرفض بارت هذا الاتِّجاه مؤكِّدًا على استبدال اللغة بالمؤلِّف، مؤكِّدًا تأويل العمل الأدبيّ وتحليله بالاعتماد على تحليل الألفاظ والتراكيب واللغة التي استخدمها المؤلِّف للتعبير عن أفكاره وآرائه بعيدًا تمامًا عن المؤلِّف وظروفه.

يُؤكِّد بارت في كتابه «لذّة النصّ (Le plaisir du texte 1975)» أنَّه في غياب الكاتب تصبح عمليَّة إيجاد تأويلات للنصّ عمليَّة عبثيَّة لا نهاية لها، لكنَّها ممتعة، حيث «يبدأ النصّ غير الثابت، النصّ المستحيل مع الكاتب وقارئه، وما لم يجتمع هذا النصّ مع متعة نصٍّ آخر، فإنه يقع خارج اللذة، وخارج النقد». وتأتي المتعة من امتلاك النصّ لإمكانات «اللعب» بالمعاني. ولكن هذا لا يعني تخلِّيًا فوضويًّا عن كلِّ القيود، وإنَّما تفكيكًا وهدمًا منظّمَيْن لإنتاج معانٍ أخرى، وكأنَّ القارئ يُعيد كتابةَ النصّ، فيصبح منتجًا له وليس مستهلكًا، وهذا هو أساس المذهب التفكيكيّ، الذي طوَّره

دريدا، ويُعدّ أساس «ما بعد البنيويَّة». أي إنَّ الكتابة عند بارت: «تبدأ من الصفر وتنتهي إلى الصفر».

تعني نظريَّة «موت المؤلِّف» تحرير النصّ بمختلف أشكاله وأنواعه من مؤلِّفه، وترك القارئ لكي يقرأه بمعزلٍ عن مؤلّفه، وبمعزلٍ عن المعاني والدلالات التي أراد المؤلِّف أن يوصلها من خلال الكلمات والجمل المكوِّنة للنصّ الذي كتبه؛ ليحلّ بدلًا منها تلك المعاني والدلالات التي يستخرجها القارئ بنفسه من النصّ. إلى ذلك تُسقِط نظريَّة «موت المؤلِّف» كافَّة السياقات التي جاء في ضوئها النصّ، هذا فضلًا عن العوامل المؤثِّرة في كاتب النصّ عند كتابته له، إلخ.

وفي الحقيقة، إنَّ بارت يُكمل بنظريَّة «موت المؤلِّف» فلسفة موت الإنسان في الفلسفة المعاصرة، حيث إنَّه يُجرِّد النصّ من أصله ويسلخه عن ماضيه، بل بعبارةٍ أدقّ: يغتال النصّ برمّته ليحلّ محلّه نصًّا آخر خلقه القارئ ولا يعترف به أحدٌ سواه؛ إنَّها النسبيَّة السفسطائيَّة ذاتها التي تجعل من الإنسان الفرد مقياسًا لكلِّ معنى.

جاك دريدا ومغامرة التفكيكيَّة:

سيكون لمقالة دريدا الشهيرة «البنية والـدالّ واللعب في خطاب العلوم الإنسانيَّة» التي أصدرها عام (1966) كبير الأثر في الخطاب ما بعد البنيويّ. أوَّل ما فعله دريدا أنَّه مضى بعيدًا في التشكيك بأسس البنيويَّة يقول في هذا الصدد: «بنية بلا أيّ مركز تمثّل اللَّامتصور ذاته». أي أنَّه لكي لا تنهار البنية يجب أن يكون لها مركز خارج هذه البُنى، ووجود هذا المركز يدحض فكرة البنيويَّة ويظهر تناقضها من الداخل. وهو يرى أنَّ هذا المركز غير ثابت، فمثلًا إذا نظرنا إلى المتضادّات الثنائيَّة على أنَّها الأحجار التي تُشكِّل البُنى، نرى أنَّها تعمل بصورةٍ نسقيَّة هرميَّة؛ إذ تسيطر واحدةً على الأخرى وتتمايز عنها (مثل ثنائيَّة ذكر/ أنثى)، ولكن إذا قُلِبت علامة

التمايز هذه يتولَّد منطق تفكيكيّ يهدم البنية ويهزّ استقرارها ليعيد خلق معانٍ جديدة دائمة التغيّر. كما يرى دريدا أنَّ البنية ملوّثة بالميتافيزيقا، فهي وجود يشبه مقولات كانط (1724-1804 Kant) الفطريَّة المتجاوزة لعالم التفاصيل الحسِّيَّة والصيرورة. وهكذا فقد حرص دريدا على التمرُّد على البنيويَّة، مؤكِّدًا أنَّ البنيويَّة إن هي إلَّا حلقة في سلسلة طويلة من البنيويَّات المختلفة، وهي على استعداد أن تردّ ذاتها إلى نقطةِ حضورٍ واحدة أو مركزٍ أو أصلٍ ثابتٍ هدفه وضع حدودٍ على لعب البنية. إنَّ مركز البنية قد يسمح بلعب عناصرها الأساس، ولكنَّه لعبٌ يتمّ داخل الشكل الكلِّيّ الثابت الذي له مركز وله معنى، فهو لعبٌ يصل إلى نقطةٍ نهائيَّة عند مدلول متجاوز.

يجوز القول إنَّ مشروع دريدا الفلسفيّ هو محاولة لهدم الأنطولوجيا الغربيَّة المبنيَّة على ثنائيَّات، مثل: الشكل والمضمون، الإنسان والطبيعة، المطلق والنسبيّ، الثابت والمتحوِّل. وهي ثنائيَّات تستند إلى مدلولٍ ثابتٍ متجاوز. وبدلًا من ذلك يحاول دريدا أن يُسقِط أو يُقوِّض من ثبات المدلول المتجاوز بالمعنى الدينيّ أو المادِّيّ، عن طريق إثبات تناقضه وأنَّه هو نفسه جزءٌ من الصيرورة المادِّيَّة. وهو بذلك يمكنه أن يُلغي الحدود بين الثنائيَّات المترتِّبة على وجود المدلول المتجاوز وصولًا إلى عالمٍ من الصيرورة الكاملة بلا أساسٍ وبلا أصلٍ ربانيّ، بل من دون أيِّ أصلٍ على الإطلاق، بحيث يتمّ التسوية فيه بين كلّ الأشياء وتسود النسبيَّة المطلقة. إنَّه عالم تتداخل فيه النصوص مع بعضها مع بعض كتداخل الدوالّ بالمدلولات، ولا يمكن الحديث عن نصٍّ مقابل الواقع، أو عن نصّ ومعنى النصّ. وهذه الرؤية العدميَّة الفلسفيَّة جاءت التفكيكيَّة لتُشكِّل منهجًا لقراءة النصوص. وهكذا تُؤكِّد فلسفة دريدا على موت المعنى، والوقوع في متاهات لفظيَّة بدعوى تحليل الخطاب من أجل الانتهاء إلى لا شيء، لم يعد هناك شيءٌ يتماثل مع آخر، ولم تعد هناك معرفة ممكنة، واستحال الاستدلال في نفسه وعلى غيره.

ميشال فوكو وحفريَّاته المعرفيَّة:

يعتبر الفيلسوف الفرنسيّ الراحل ميشال فوكو Michel Foucault (1926– 1984) من أبرز فلاسفة ما بعد البنيويَّة؛ حيث قدَّم النسخة المبكّرة لفكر ما بعد البنيويَّة؛ من خلال كتابه «حفريَّات المعرفة» 1969. لقد اهتمّ فوكو في هذا الكتاب بدراسة العبارة ووظيفتها في الخطاب وشروط إنتاج المعنى في مختلف البُنى الخطابيَّة. وقد جاء هذا العمل بعد انتفاضة الطلبة عام 1968 التي أيَّدها فوكو رغم أنَّه لم يكن متواجدًا في فرنسا حينها. يلتقي فكر فوكو في هذا العمل وما تلاه من كتابات مع الخصائص الفكريَّة والثقافيَّة المميّزة لتيَّار ما بعد الحداثة. فقد بدأ فوكو بالبحث عن الاختلاف وليس عن التماثل والتجانس في بنية الخطاب، وأخذ يدرس كلّ ما هو هامشيّ وعرضيّ وتافه في الممارسات الثقافيَّة للحقب الحضاريَّة المختلفة، وهو ما أطلق عليه (الحدث الأركيولوجيّ). وقد تمحورت كتابات فوكو حول قضايا كانت بعيدةً كلّ البعد عن مجالات البحث الفلسفيّ التقليديّ. فقد تعلّقت اهتماماته بالجنون، والمصحّات النفسيَّة، والمستشفيات، والإجرام والمجرمين، والسجون، والجنس وموقعه واشكاليَّاته الثقافيَّة والحضاريَّة. وبعد (حفريَّات المعرفة) كَتَبَ فوكو (نظام الخطاب) عام 1971، و(المراقبة والعقاب) عام 1975، و(تاريخ الجنسانيَّة) ذلك العمل الضخم الذي لم يكتمل بسبب وفاته عام 1984، والذي صدرت منه ثلاثة مجلَّدات (إرادة العرفان) و(استخدام اللذَّة) و(العناية بالذَّات)، والذي يعدّ عرضًا زمنيًّا لأشكال السلوك الجنسيّ عبر الحضارات الغربيَّة.

يتَّضح لنا أنَّ فوكو يرفض اليقين في كلِّ ما تتحدَّث عنه الفلسفة، وهو في رأينا ادِّعاءٌ لا يملك صاحبه عليه دليل واضح. بل يحيلنا إلى تساؤلٍ مهمّ فحواه: ما الذي جعل «ما بعد البنيويِّين» يتشكّكون في العقل وقدرته على المعرفة بهذا الشكل؟ وكيف عملوا على تحجيم العقل بهذه الصورة وسلبوه أيّ قدرة على المعرفة اليقينيَّة أو تقديم قوانين عامَّة وكلِّيَّة بعيدًا

عن جميع أنواع النسبيَّة والتشكيك في باب الحقيقة الواقعيَّة؟ وعلى أيِّ معيارٍ بنوا نتائجهم الصادمة في العقل ليصلوا إلى مثل هذه النسبيَّة؟ ألا يُعدّ هذا تناقضًا صارخًا؟! إنَّ مثل هذه الأسئلة تجعل من الموقف ما بعد البنيويّ موقفًا هشًّا مائعًا تبدو معه كلّ المعاني سائلة غير محدّدة، ينتفي معها كلّ يقين. وبذلك تتشابه مع التفكيكيَّة التي تُعدّ من أهمّ ملامح ما بعد البنيويَّة، وهي تبدو كفلسفةٍ ومنهجيَّةٍ لقراءة النصوص في آنٍ واحد.

جاك لاكان وما بعد بنيويَّة التحليل النفسيّ:

في البحث الذي كتبه مالكولم بوي عن الفيلسوف والعالم النفسانيّ جاك لاكان، إضاءات معمّقة على علاقة الأخير بعالم التحليل النفسيّ الأشهر سيغموند فرويد. وحسب مالكولم بوي إنَّ علاقة لاكان بمعلِّمه فرويد سلكت مسارَينِ مختلفَين[1].

الأوَّل والأوضـح في إجراءاته هو استخراج أفكار فرويد من ركام التبسيطات والتفسيرات التي أغرقه بها من تلاه من الكتاب. وقد استهدفت سهام الجهود الخلافيَّة المضنية التي تطلَّبها ذلك حركة التحليل النفسيّ العالميَّة ذاتها. أمَّا أولئك الذين لا يرون في الأفكار الفرويديَّة أكثر من سلعة يتعاملون بها. فقد ارتكبوا ما هو أسوأ من سوء فهم فرويد: لقد فقدوا لإحساس بوطأة هذه الأفكار وجدَّتها وإثارتها للحيرة كما صاغها أصلًا. لقد فُهِمَت هذه الأفكار وكُرِّرت بشكلٍ بالغ السطحيَّة، بحيث أصبحت عائقًا يقف أمام البحث العلميّ في العمليَّات الذهنيَّة بدلًا من أن تعزي لمزيدٍ من ذلك البحث.

أمَّا المسار الثاني والأعقد -برأي الكاتب- فهو حين يعرض لاكان إلى خطرٍ أكبر من خطر استعداء بعض أنداده في المهنة. فهو يضطلع بمسؤوليَّة تصحيح بعض الأجزاء في أعمال فرويد بالاستعانة بأجزاءٍ أخرى.

(1) انظر: ستروك، البنيويَّة وما بعدها، م.س، ص285.

والاكتشاف الذي يضعه لاكان في المركز من منجزات فرويد ويستعمله بوصفه وسيلته الفكريَّة الأساس لتصحيح فرويد من الداخل هو اللَّاوعي. أي اللَّاوعي الذي يظهر بوصفه نظامًا مستقلًّا يتعارض مع نظامٍ يتشكَّل ممَّا هو سابقٌ للوعي، وما هو ضمن دائرة الوعي.

وهكذا، يرفض لاكان في معرض إعادة التفكير في نصوص فرويد «من الداخل» الخضوع لمغريات القبول التامّ أو الرفض التامّ بالدرجة نفسها من الثبات. وتتَّضح بدايات هذا التوتُّر في أوَّل كتابٍ كبيرٍ نشره بعنوان «ذهان العظمة وعلاقاته بالشخصيَّة de la psychose Paranoiaque dans ses rapports avec la personalité» الذي نُشِر عام 1932 وأُعيد طبعه عام 1975. لقد جاء لاكان إلى التحليل النفسيّ، ويُشكِّل هذا الكتاب الذي كان رسالته لنيل الدكتوراه نقطة تحوُّلٍ حاسمة في سيرته الفكريَّة. ومع أنَّه يحرص على كلّ الدقائق البحثيَّة التي تتطلّبها رسائل الدكتوراه، لكنّ لاكان يشنّ فيه هجومًا قويًّا على عدَّة أنماطٍ سائدة من أنماط التفسير النفسانيّ.

لقد وضع لاكان بإيحاءٍ من التحليل النفسيّ تصوُّرًا لعلمٍ يدرس الشخصيَّة، يحتفظ فيه الشخص بماضيه ومقاصده وذكائه المبدع. ولكن لاكان يؤكِّد -حتَّى في أثناء استخلاصه لهذا الدرس وتَغَنِّيه «بعبقرية أستاذ التحليل النفسيّ الهائلة»- حدود ما يدين له به ويشير إلى التناقضات التي تكتنف نظريَّة فرويد. كذلك نراه يستمدّ بعض الأفكار بشكلٍ بتنا نألفه عنده من مفكِّرين آخرين مثل سبينوزا، ووليم جيمس، وبيرغسن، ورسل من أجل أن يبقى نموذجه النظريّ منفتحًا لنُظُمٍ فكريَّةٍ أخرى. وتمكَّن في الجدل العنيف الذي مارسه في ذهان العظمة، وفي ما قدَّمه من مفاهيم لا تتّصف بالثبات ويصحّح بعضها بعضًا، من خلق أسلوبٍ فكريٍّ مدهش.

ثانيًا: التفكيكيَّة بوصفها معادِلًا لما بعد البنيويَّة:

تُعدّ التفكيكيَّة -بحسب ما ذهب إليه جون ستروك- فلسفةً ومنهجًا في آنٍ واحد؛ فهي من حيث هي فلسفة، إحدى ملامح فلسفة ما بعد الحداثة التي تدعو إلى فكّ الصلة بين اللغة كدالّ وبين المفهوم في الذهن كمدلول؛ حيث لا تؤمن هذه الفلسفة بأيِّ وجودٍ ذهنيٍّ مجرَّدٍ للأفكار، وبالتالي فهي ترى أنَّ اللغة ليست أداةً لنقل المعرفة، وإنَّما هي أداة إنتاجها، وترى بأسبقيَّة اللغة على الواقع. وأمَّا من حيث كونها منهجيَّة فهي تّعد أبرز مناهج التحليل الفلسفيّ والأدبيّ التي تنتمي إلى مناهج ما بعد الحداثة. وهي منهجيَّة ترفض التحليل الثابت للنصّ وتدعو إلى منح النصّ معان جديدة غير ثابتة. وتقوم التفكيكيَّة بوصفها فلسفةً ومنهجًا على مجموعةٍ من المقولات التي تُشكِّل بنيتها الفكريَّة، وتُعبِّر عن آليَّة ممارسة منهجها. وهنا يستدعي الأمر الوقوف عليها؛ لأنَّها سوف تعكس إلى حدٍّ بعيدٍ طبيعة الفلسفة التفكيكيَّة وبيان فعاليَّة منهجها النقديّ، وتتمثَّل في خمس مقولات مهمَّة، نعرض لها في ما يأتي:

- **عدم ثبات العلاقة بين الدال والمدلول:** يعمل التفكيكيُّون على اللعب بقضيَّة العلاقة بين الدالّ والمدلول، وبيان عدم ثباتها، فالدوالّ غير ثابتة مع المدلولات ولكنَّها حركيَّة ديناميكيَّة تعمل على تعدُّد المعنى ولا تناهيه، فلا دالّ ثابت مع مدلوله. فاللغة تدمِّر معانيها بنفسها؛ لأنَّ لكلِّ لغةٍ مجازًا، تعمل في هذا المجاز وتضيف له التشبيه، والمجاز يقوم بالأساس على القدرة على إبدال رمزٍ برمزٍ أو دلالةٍ بدلالةٍ أخرى. فالنصّ فضاء متعدِّد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعدِّدة وتتعارض؛ وما ذلك إلَّا لأنَّ الكتابة عند التفكيكيِّين «قضاء على كلّ صوت، وعلى كلّ أصل. وعليه، الكتابة بهذا المعنى هي هذا الحياد. هي أيضًا هذا التأليف واللفّ الذي تتيه فيه ذاتيّتنا الفاعلة. بل إنَّها السواد/البياض الذي تضيع فيه كلّ هويَّة».

- **نقد المركزيَّة:** وبعبارةٍ أخرى نقد التمركز Critic of Centricity : فالمركز شيءٌ إيجابيّ لحركة الدلالة والمعنى، ومع غياب المركز يتلاشى النصّ ويتبعثر يمينًا ويسارًا، ولكن أن يظلّ المركز مطلقًا فهذا يعني التمركز؛ أيْ أنْ تقوم بنية مركزيَّة تدَّعي لوحداتها النموذج المتعالي على النصّ كلّه، فهذا كلّه يجعل النصّ عند التفكيكيِّين جامدًا وساكنًا ومملًّا؛ ولذلك دعا رولان بارت إلى نظريَّة «موت المؤلِّف» ليفسِّر القارئ النصّ وفقًا لثقافته أو بيئته أو تعليمه أو توجّهاته؛ لأنّ استمرار الصلة بين المؤلِّف والنصّ، كما يقول بارت: «تؤدِّي إلى إيقاف النصّ وحصره وإعطائه مدلولا نهائيًّا، إنَّها إغلاق الكتابة».

- **إحلال اللغة محلّ المؤلِّف:** يشير رولان بارت إلى ضرورة أن تحلّ اللغة محلّ المؤلِّف؛ فبالرغم من مملكة المؤلِّف لا تزال شديدة القوة، لكنّ المنهج التفكيكيّ يعمل جادًّا على إضعافها وخلخلتها، ليستبدل بها اللغة، فاللغة -عند بارت وغيره من التفكيكيِّين- هي التي تتكلَّم وليس المؤلِّف، أن أكتب -كما يقول بارت- «معناه محو أوَّليّ لشخصيّ، (هذا المحو الذي ينبغي أن نميِّزه عن الموضوعيَّة التي كان يقول بها كتاب القصَّة الواقعيَّة) تلك النقطة التي لا تعمل فيها إلَّا اللغة وليس أنا».

- **الاختلاف والإرجاء:** وتلك سمة مهمَّة وخطيرة في المنهج التفكيكيّ. فالإرجاء يجعل الدلالة غير حاضرة، والعنصر يكون موسومًا بشيءٍ من أثر العنصر السابق، وتاركًا نفسه للعنصر القادم يحفر فيه علامةً جديدة. ولهذا كان الإرجاء والاختلاف يقود إلى مقولةٍ لا نهائيَّة المعنى، ما يعني حالةً من توالد المعاني المتتالية، وبالتالي حضور معانٍ ثم غيابها بشكلٍ متتالٍ ومستمرّ، وقد أكدَّت نظريَّات القراءة

والتلقّي فكرة تعدُّد التأويلات، واختلاف القراءات نتيجةً لاختلاف القرَّاء، ما يعني موت فكرة المعنى الموروث للنصّ.

- **التناصّ أو التكراريَّة:** التكراريَّة بالمعنى التفكيكيّ هي العمليَّة التي تتيح لأيّ منطوقٍ أو مكتوبٍ أن يندرج في سياقٍ مغاير، وهي تفضي إلى وجود اختلافٍ في الإعادة؛ حيث تنكشف حجب معانٍ أخرى حسب السياق لنفس الجمل المعادة. فهي كما يقول زيما: «لعبة ضدّ مبدأ السيطرة والقمع على المستوى اللغويّ، المقاليّ».

وهكذا تؤدِّي فلسفة ما بعد البنيويَّة/ التفكيكيَّة إلى موت المعنى وموت المؤلِّف وموت جميع الثوابت، والوقوع في متاهاتٍ لفظيَّة بدعوى تحليل الخطاب من أجل الانتهاء إلى لا شيء. ولم تعد هناك معرفة ممكنة، وانتهت فعاليّة قوانين الفكر الأساسيَّة، وفي مقدِّمتها قانون الهويَّة، ولم يبق إلَّا قانون الاختلاف[1].

ثالثًا: الألسنيَّة آخر مطافات التفكيك:

من كلّ ما سبق يظهر لنا -حسب الكتاب- أنَّ مشكلة اللغة تحتلّ المحلّ الأوَّل من أسلوب الفكر الذي يهمّنا هنا. والفكر الفرنسيّ المعاصر يُكرِّر في هذا ما كان يحصل في الفلاسفة الأنغلو-أميركيَّة في الأعوام العشرين الماضي حيث ساد المظهران العمليّ والنظريّ من اللغة؛ وذلك لأنَّ اللغة ما عاد يُنظر إليها على أنَّها واسطة الفكر البسيطة الشفَّافة كما كان يعتقد.

هنا يُفضِّل المؤلِّف مساواة اللغة بالفكر، ويقول: بدلًا من أن ننظر إلى الواقع من خلالها فإنَّنا ننظر إليها في محاولةٍ منَّا لفهم كيفيَّة اكتسابنا لها أوَّلًا ثم كيفيَّة استعمالها.

(1) انظر: ستروك، البنيويَّة وما بعدها، م.س، ص289.

وهكذا تلعب اللغة – بحسب قراءة المؤلِّف- دورًا مركزيًّا في فكر بارت وفوكو ودريدا ولاكان. وهو دورٌ لا يقلّ في أهمِّيَّته عن الدور الذي تلعبه في أنثروبولوجيا ليفي شتراوس. حتَّى ليمكن القول إنَّهم جميعًا مهووسون بها- مهووسون بالطبيعة المؤسَّسيَّة للُّغة وبقدرتها اللامتناهية على الخلق. واللغة ليست شيئًا نجلبه معنا عند الولادة بل هي مؤسَّسة ندخل في عالمها بشكلٍ تدريجيٍّ في فترة الطفولة باعتبارها أهمّ عنصر في تنشئتنا الاجتماعيَّة على الإطلاق. وهكذا يمكن وصف اللغة بأنَّها لا شخصَّية وتتجاوزنا بوصفنا أفرادًا. وأيّ استخدام للغة الاتِّصال بالآخرين (أو حتى بأنفسنا) يتطلَّب منَّا التنازل عن جزءٍ على الأقلّ من تفرُّدنا؛ لأنَّ لغتنا لو كانت فريدةً هي الأخرى لتعذَّر فهمها. وإن شئنا استخدام المصطلحات التي يُفضِّلها لاكان قلنا إنَّ جانبًا من الليبدوفينا يجب أن يقدّم للنظام: يجب أن ننتقل ممَّا يدعوه لاكان بالمستوى الخياليّ. وهو مستوى يتَّصل بحياتنا الخاصَّة ويتَّصف بالإبهام، إلى المستوى الرمزيّ الذي يتَّصل بحياتنا الاجتماعيَّة.

وهكذا، نجد أنَّ ثمَّة أيديولوجيَّة مشتركة تفعل فعلها هنا: تفكّك الأنا وانكسارها، والنفس بمعناها التقليديّ تبدو لأمثال فوكو فكرةً «لاهوتيَّة»، تبدو تعاليًا زائفًا. إنَّ هؤلاء المفكِّرين جميعًا يعارضون السلطة ويعارضون الميتافيزيقا، وهم لا يرغبون في التعالي عمَّا يرونه بحثًا عن معنى خفيّ نهائيّ يمكن أن «يفسِّر» كلّ شيء، وهم لا يؤمنون بأنَّ من الممكن تفسير كلّ شيء، ولا بالتفسيرات الغائيَّة للتاريخ، ويعارضون المفرد والجمع ويفضِّلون استخراج مجرّاتٍ كاملةٍ من المعاني من عددٍ محدودٍ من الظواهر على الفكرة القائلة: إنَّ هذه الظواهر تضمّ معنى واحدًا سائدًا، ويعتقدون بضرورة «الانتشار» -حسب تعبير دريدا- بقدر ما يتعلَّق الأمر بالمعنى.

لقد بدا أنَّ المفكِّرين الخمسة الذين يتناولهم هذا الكتاب «كتّاب» أيضًا. فهم شديدو الإحساس بالشكل الذي تتَّخذه كتاباتهم ومطّلِعون على

حيل البلاغة وتأثيراتها. وأعمال ليفي شتراوس هي الوحيدة من بين أعمال هؤلاء الكتَّاب التي يمكن تصنيفها تحت اسم علم أكاديميٍّ تقليديّ. أمَّا الآخرون فقد يدّعون الانتساب إلى الأدب مثلما قدً يدّعون الانتساب إلى النقد أو التاريخ أو التحليل النفسيّ أو الفلسفة.